التاريخ السري لكريستوفر كولمبوس:

بابا روما أراد العثور على طريق البلاد الغنية بالذهب لتمويل حملة صليبية لاحتلال القدس عام 1500 قبل أن يهتم رسامو الخرائط الأوروبيون برسم تفاصيل أمريكا بوقت طويل كان قد قام بهذه المهمة تركي

ثامر بيراوي *

■ يبدو التاريخ كرواية لا تكتمل فصولها أبدا، ويمكن الجزم بأن التاريخ، أي تاريخ، هو مادة حية تحتمل اعادة قراءة وتفسير وفهم واضافة، فهناك دائما تفاصيل جديدة تضاف الى ما هو معروف لتساهم في اكمال الصورة. وشخصياته، خاصة منها الفاعلة، ينتظرها المصير نفسه.

أما نحن، ضحايا التاريخ المعاصر، كما يحلو للبعض تسميتنا، نبدو وكأننا لم نحصل بعد على ما يلزم من الوقت لاستقراء التاريخ. ولا يهم ان جاء هذا الموضوع خارجا عن الوجبة المعتادة في هذا الصيف الذي سماه بعضهم بالساخن، فلتكن فسحة أو فلتة، ولتكن علامة على أن الحرب ليست الا جزءا من التاريخ، أي تاريخ.

فمن منا لا يعرف أو لم يقرأ شيئا عمن قدمه لنا التاريخ المكشوف حتى الآن على أنه مكتشف أمريكا والعالم الجديد؟ الكاتب والصحفي الاسباني (خافيير سييرا) المتخصص في الغريب من التاريخ وبمساعدة الكاتب والصحافي الايطالي (روجيرو مارينو) يكشفان في فصول نشرتها جريدة (الوندو) تفاصيل جديدة ومثيرة عن (كولون ـ كما يسميه الاسبان) و تلك الحقبة سنحاول تلخيصها للقارئ العربي .

كولومبوس

والقصة المثيرة تبدأ من الفاتيكان. وكيف لا وقد اصبح في الاونة الأخيرة مع (دافنشي) وشيفرته والملاءة (المقدسة) وما تبعها وسبقها من (الهيكل) وفرسانه، موضة ادبية كاسحة ترافق موجة ايديولوجية تترجم الى سياسات عملية لا تخفى على أحد.

ففي زيارة للكاتب لكاتدرائية القديس بطرس في روما تستوقفه جملة لاتينية مكتوبة على قبر البابا (انوثينثيو الثامن) تعزو شرف اكتشاف العالم الجديد لهذا البابا مما يثير استغراب الكاتب لأن (انوثينثيو الثامن)، واسمه الحقيقي (جوفاني باتيستا كيبو) وولد في مدينة (جنوة) الايطالية وحكم الكنيسة من عام 1484 حتى نهاية الشهر السابع من عام 1492، مات بالحمى وآلام في البطن قبل سفر (كولومبوس) باسبوع، فكيف يكون له شرف اكتشاف العالم الجديد؟ وكيف لم ينتبه أحد طوال القرون الماضية لهذه الواقعة؟ يتساءل (خافيير سييرا)، لينتهي به المطاف الى التأكيد على أن هناك سرا، بل اثنين، فبينما هذا البابا مات فعلا عام 1492 الا أن النقش على قبره يصرح أنه مات عام 1493وهو العام الذي كان فيه البابا الاسباني (ألكسندر الخامس) واسمه الحقيقي (رودريغو بورجيا) يدعم بشكل لم يماثله فيه أحد طموحات ملوك اسبانيا الكاثوليك في أمريكا، وهذا ما سيحاول اكتشافه وسيعاونه على ذلك الصحافي الايطالي (روجيرو مارينو) مؤلف كتاب (كريستوفر كولومبوس والبابا المخدوع) الصادر عام 1997 وكذا كتاب (كريستوفر كولومبوس،آخر فرسان الهيكل) والذي ستصدر ترجمته الاسبانية قريبا.

انوثينثيو الثامن

وبحسب ما ينقله سييرا عن الكاتب الايطالي (روجيرو) فانه لا يمكن فهم الأسرار التي أحاطت بمغامرة كولومبوس الا بدراسة هواجس البابا انوثينثيو كيبو الذي وحسب ذكره كان خائفا جدا من التقدم المستمر الذي أحرزه المسلمون في المتوسط صيف عام 1490، وكانت لا زالت حاضرة ذكرى سقوط القسطنطينية عام 1453، كما أن العام 1480 شهد واقعة (أوترانتو) في الجنوب الايطالي والتي تذكر المصادر الأوروبية أن الأتراك ذبحوا خلالها 800 من سكان الشواطئ، لذلك ـ يستنتج روجيرو ـ كان لا بد من كبح جماحهم ولم يكن هناك افضل من الهجوم وذلك بالتحضير لحملة صليبية تمتص هجومهم وتعيد احتلال الأراضي المقدسة.

واذا ما اعترض الصحافي الاسباني محقا أن التاريخ لم ينقل لنا أن العام 1490 قد شهد أية حملة صليبية، فان روجيرو الايطالي لا يشك أن هذا العام قد شهد ترتيبات حثيثة قام بها البابا انوثينثيو الذي وضع مخططا قسم على أساسه أوروبا الى ثلاثة جيوش كبيرة: الاول بقيادة دول الفاتيكان نفسها والثاني يجمع هنغاريا والمانيا وبولونيا والثالث بالتعاون بين اسبانيا وفرنسا وانكلترا، ولكنه يضيف أن موت ملك هنغاريا عرقل المشروع ولكن لم يلغه ودليله على ذلك أن البابا قضى السنتين التاليتين في تنظيم موارده المالية والتفكير في المصادر المحتملة لتمويل الحملة لاحتلال القدس، ولهذا كان يحتاج الى كثير من الذهب.

وفي أجواء البحث المحموم عن الموارد برزت شخصية أميرال البحر، الجنوي هو الآخر والمتشرب كما البابا نفسه بأفكار عودة المسيح كما يبين روجيرو ذلك في كتابه الأخير، ويضيف: «في أجواء يوبيل عام 1500 كانت الأجواء مشبعة بتمنيات احتلال الأماكن المقدسة، ومن المحتمل أن يكون البابا قد رأى في كولومبوس الرجل المناسب لهكذا مشروع».

وحسب نظرية روجيرو فان البابا انوثينثيو هو الذي فتح الطريق أمام كولومبوس للوصول الى بلاط ملوك قشتالة واراغون مساعدا بذلك حملة الاكتشاف منوها أن هذا البابا هو نفسه الذي منح ملوك قشتالة واراغون لقب الكاثوليك. وعلى ضوء هذه المعطيات يعتقد روجيرو أن مغزى الكلمات المنقوشة على قبر البابا يصبح واضحا، ولكن المفاجآت لا تنتهي هنا، اذ يعتقد روجيرو جازما أن باستطاعته اثبات أن احد أسباب اعتماد البابا على كولومبوس هو كونهما أقرباء، بل يعرب عن شكه في كون كولومبوس ابنا غير شرعي للبابا (انوثينثيو كيبو)، والدلائل على ذلك كثيرة حسب رأيه منها الشبه الجسماني المحير بين الرجلين والذي يمكن التأكد منه بمقابلة ما وصل الينا من صور الرجلين.

اضافة الى هذا يقرر روجيرو أن البابا انوثينثيو ذو نسب يهودي وان خالته تركية وجدته مسلمة، و بناء على هذه الخلطة في النسب، واذا ثبت أن كولومبوس ابن غير شرعي للبابا، يصبح مفهوما حسب رأيه أن يخفي كولومبوس أصوله، وهو ما فعله دائما، كما يفسر تسميته لأول أرض داسها في العالم الجديد باسم كوبا نسبة الى (كيبا) اسم عائلة (جوفاني باتيستا كيبو) الذي سيصبح انوثينثيو الثامن.

ولكن كيف انتهى مشروع الحملة الصليبية؟ يسأل الكاتب الاسباني ليجيبه روجيرو أن الجواب على هذا السؤال لا بد موجود في المكتبة الكولمبية في اشبيليا، حيث يحفظ الكتاب الأوحد المكتوب بيد وخط كولومبوس و عنوانه (كتاب النبوءات).

وبالفعل، فان المكتبة الكولومبية، الواقعة داخل كاتدرائية اشبيلية التي كانت يوما مسجدها الكبير، تحفظ هذه التحفة الثمينة المكونة من 70 صفحة من أصل 84 كتبها كولومبوس بيده على ما يقول خافيير سييرا الذي تسعفه قراءتها في تبديد بعض شكوكه وتظهر له صحة ما ذهب اليه الايطالي روجيرو مارينو حول معتقدات كولومبوس الصليبية، حيث يبدأ الكتاب بالاعلان أن «هذا الكتاب، أو مجموعة الشواهد والأقوال، والأحكام والنبوءات حول استعادة المدينة المقدسة، صهيون، وعن اكتشاف وتنصير جزر الهند وكل الأمم والشعوب لصالح ملوكنا الاسبان».

وفي رأي سييرا فان هذا المخطوط الذي لم ينشر أبدا حتى عام 1984 والذي يصعب الحصول على نسخة منه حتى الآن، يحوي معلومات غير معروفة حتى الآن عن خلفية كولومبوس الصليبية . ففي هذه السيرة الذاتية نتعرف على كولومبوس الرجل المتضلع من علوم شتى،المتعصب والجامع لجمل مأخوذة من العهد القديم اعتبرها تؤسس لفخرته القادمة والواثق من أهمية مهمته التي كلفه القدر بتحقيقها.

وحسب خافيير سييرا فان كل الشواهد السابقة قد تكون السبب الذي جعل كولومبوس يوقع كل رسائله بالطريقة المقلوبة التي استخدمها حيث استخدم امضاء كريستو فيرين وهي المقابل اليوناني اللاتيني لـ كريستوفر ومعناها حامل المسيح ،كما لا يشك سييرا أن روح الفتوحات التي كانت تسكن في هذا الـ «كولومبوس» هي التي دفعته الى أن يخيط ثلاثا من صلبان الداوية (فرسان الهيكل) على أشرعة سفن رحلته الأولى.

ويستشهد سييرا بما يضيفه روجيرو من أن كولومبوس عندما أقلع بسفنه من شواطئ «ولبا» الاسبانية كان يحس بنفسه صليبيا كأي من فرسان الهيكل الذين سيطروا على قلب القدس قبل سفره بثلاثة قرون.

ولكن اللقاء بين الصحافي والكاتب الاسباني ومثيله الايطالي لم يبدد كل الشكوك ولم يجب على كل الأسئلة التي بقي منها واحد مهم : «من أين جاءت للبابا كيبو وكولومبوس كل تلك الثقة من أن طريق الذهب الذي يحتاجانه موجودة فيما بعد في أعمدة هيركوليس ـ مضيق جبل طارق»؟

الاجابة على هذا التساؤل اضطرت الاسباني خافيير سييرا الى الذهاب بعيدا الى القسطنطينية القديمة: اسطمبول الحالية.

الخريطة الغريبة التي ألهمت كولومبوس

ففي آب (أغسطس) من عام 1998 داست رجلا خافيير سييرا اسطنبول بقصد البحث عن قصة ما يسمية واحدة من أغرب خرائط العالم، وان كان هدفه الأكبر مجموعة من خرائط الملاحة عمرها خمسة قرون «قد تجبرنا مدوناتها ان قبلناها» على اعادة كتابة تاريخ اكتشاف أمريكا .

والأطلس المقصود مؤرخ عام 1513 ومرسوم على جلد غزال مدبوغ بطول 90 سنتمترا وعرض 65 ويصف بدقة السواحل الأطلسية لاسبانيا والبرتغال والقرن الافريقي وجل وسط وجنوب أمريكا.

ويعتقد سييرا انه وبرغم أن هذا الأطلس يتضمن مقاطع من جزر مثل المالديف ـ التي لم ترسم حتى عام 1592 ـ ويؤشر على منابع نهر الأمازون في جبال الأنديز ـ التي ظلت مجهولة حتى بداية القرن السادس عشر ـ فان هذه في الحقيقة ليست الا من صغريات الألغاز التي يحويها .

ويقول سييرا إن خارطة الملاحة هذه مشهورة بشكل معقول اليوم في اسبانيا، ويذكر كيف أن رواية الأصل المفقود للكاتبة ماتيلدي أسينسيو جعلت منها أيقونة شعبية عام 2003، ومع هذا، يقول، إن قليلا من الناس يعرف أن صاحبها هو البحار التركي (محيي الدين بيري ابن حاجي محمد) المعروف أكثر باسم (الأميرال بيري أو بيري ريس) وأنه وضعها لتكون هدية لسلطان مصر التركي آنذاك. اضافة الى كل ما سبق ينقل سييرا من تجربته أن هذه الخارطة تعتبر في تركيا اليوم مفخرة وطنية حقيقية، حيث تظهر على ورقة العشر ليرات، كما انها منسوخة بالحجارة والقاشان على كثير من جدران اسطمبول وكثيرا ما تستعملها نشرات مكاتب السياحة في هذا البلد.

ويرى سييرا أن الفضل في هذه الشهرة الكبيرة التي يتمتع بها هذا المخطوط ترجع الى كمال أتاتورك حيث في عهده تم اكتشاف الخارطة ـ أو الجزء الغربي منها ـ بين حطام قصور (توبكابي) المهجورة، وقد تبنى أتاتورك هذا الاكتشاف وقرر تحويله الى أحد رموز جمهوريته الناشئة كما يقول سييرا، ويضيف: «وقد نجح في ذلك، اذ لا يوجد كتاب خرائط للعالم الجديد لا يحوي في مكان مميز هذه الخارطة».

وبالمحصلة فانه وقبل أن يهتم رسامو الخرائط الأوروبيون برسم تفاصيل أمريكا بوقت طويل كان قد قام بهذه المهمة تركي.

خارطة بيري ريس العجيبة

ويتساءل سييرا عن كيفية حصول ذلك ويضيف : «من التناقضات الظاهرة أن هذه الوثيقة البالية ما زالت تحوي قنبلة موقوتة للمهتمين بتاريخ اكتشاف العالم الجديد»، ويشرح ذلك بالقول إن صاحب هذه الخريطة بيري ريس قد اهتم كثيرا بكتابة قصة أطلسه وذلك في نص طويل كتبه عن الشاطئ الأمريكي، وأنه ترك جملة كتبها قرب (كوبا) الحالية يقول فيها: «هذه الشواطئ تسمى شواطئ الأنتيل وتم اكتشافها في العام 890 من الهجرة ويقال إن كافرا من جنوة اسمه «قولونبو» ـ والاسم مذكور بالتركية هو مكتشف هذا المكان».

وهكذا ـ يتابع سييرا قوله ـ فقد باتت واضحة للعيان المتفجرات التي تحويها هذه الجملة ولو أن أحدا لم ينتبه لها حتى الآن، فالعام 890 للهجرة هو تاريخ غير موافق لزمانه،يضاف الى التواريخ الأخرى المشابهة والتي تحويها قصة اكتشاف العالم الجديد حسب زعمه. وهذا العام الهجري يوافق العام 1485 ميلادي،أي سبع سنين قبل التاريخ الرسمي الذي يؤرخ لوصول أول أوروبي الى الجهة الأخرى من الأطلسي، فهل كان هذا خطأ من البحار التركي ـ يتساءل ـ؟

ويروي سييرا تعجبه الكبير من عدم وجود خارطة بيري ريس في أي من حافظات متحف توبكابي مع أن كل الفهارس كلها تعلن عكس ذلك، ولم تنفعه كذلك مقابلة مديرة المتاحف في رؤية الخريطة العتيدة ولا في معرفة أسباب عدم عرضها على الجمهور، ولكن الكاتب والصحافي ومؤرخ الغريب من التاريخ ومدير المجلة التاريخية المتخصصة لم يستسلم اذ كان يحتاج لرؤية الخريطة بالعين المجردة للتأكد من التاريخ المكتوب عليها، وهنا ترد على الخاطر كثير من التداعيات، منها ما كان قد دعى له يوما طه حسين من ضرورة تعلم اليونانية للحاق بالعصر الحديث وهي الدعوة التي خافها الكثيرون على أنها تغريبية وقد تكون كذلك، ولكنني أكاد اجزم أن اهمالنا لتراث الامبراطورية الاسلامية العثمانية يفسر جزءا من تأخرنا الحالي، مع الاشارة كمثل الى أن برنارد لويس نفسه لم يكن له أن يكون بدون السنين الطويلة التي قضاها في دراسة الأرشيف العثماني الذي نحن احق بدراسته، ولكن هذا موضوع يستحق الدرس والتعليق على حدة.

وقد يكون لنا مثلا اصرار هذا الكاتب على المضي قدما في بحثه واستخدام كل الوسائط الدبلوماسية والبيروقراطية والثقافية لرؤية هذا المخطوط، وهكذا وبعد شهور من السعي الحثيث عاد سييرا عام 2002 الى اسطنبول باللازم من خطابات الاعتماد ليصطدم مجددا برفض مساعدة مديرة المتحف معللة بان أحدا لم ير هذا المخطوط منذ عهد أتاتورك، ولكنه ثابر و أخيرا فتحت له أبواب المكتبة في السابع عشر من تشرين الاول (أكتوبر) في الساعة العاشرة صباحا من تلك السنة كما يذكر.

وبأبهة تليق بالمناسبة ـ كما يقول ـ أخرجت له الموظفة من صندوق خشبي قطعة من الجلد المنقوش طولها يقترب من المتر لا تكاد تحميها ورقة بصل شفافة وقطعة من الكرتون، ويصف سييرا الخريطة بأنها ذات ألوان قوية وبراقة وتبدو للوهلة الأولى بصحة تحسد عليها كما يقول .

هكذا اذن استطاع سييرا أن يحقق رغبته في رؤية الخريطة وما هو مكتوب عليها بيد بيري ريس والتحقق من أنها تحمل تاريخ 890 للهجرة الذي يوافق سنة 1485 ميلادية، وهذا يعني أنها رسمت 7 سنين قبل التاريخ الرسمي لاكتشاف أمريكا، وبمتابعته قراءة ما كتبه البحار التركي على الخريطة، يكتشف الصحافي والكاتب الاسباني أن بيري ريس كان قد وضع الخريطة مستندا الى معلومات حصل عليها من سجين اسباني كان قد رافق كولومبوس في رحلاته الثلاث الأول، اذن هل أخطأ السجين في أعطاء تاريخ أول رحلة الى العالم الجديد؟

الكاتب الايطالي روجيرو مارينو يرى أن هذه الزلة في أطلس بيري ريس قد تكون الدليل على أن كولومبوس كان قد قام برحلة أولى سرية سبع سنين قبل رحلته الرسمية، وأن كولومبوس قام بهذه الرحلة بعد ان اكتشف أن ملك البرتغال خوان الثاني قد خدعه، ويشرح ما يذهب اليه بالقول إن كولومبوس كان يحاول اقناع التاج البرتغالي بحقيقة وجود عالم في ما وراء أعمدة هيركوليس/ هرقل، وفيما كان يبدو أن أحدا لا يصدقه أرسل ملك البرتغال من وراء ظهره حملة بحرية بقيادة الكابتن دومينغو دي أرييو لاستطلاع هذه الأراضي، ولكن أواخر عام 1484 فشلت محاولة أرييو ووصلت أخبار الفشل لأسماع كولومبوس فغضب وغادر البلاط ولم يظهر الا في عام 1486 في بلاط ملوك اسبانيا الكاثوليك.

فهل زار كولومبوس أمريكا في الوقت المنقضي بين خروجه من بلاط ملك البرتغال وظهوره في بلاط ملوك اسبانيا، وهل جانب الصواب أطلس بيري ريس بتعيينه العام 1485 كتاريخ لأول رحلة الى امريكا؟ وهل كانت هذه الرحلة الأولية هي السبب الذي جعل من كولومبوس واثقا من نجاح مخططه ـ يتساءل سييرا ـ؟؟

ومع أن سييرا يعترف باستحالة الجواب اليوم على كل هذه الأسئلة الا أنه يقر بأن التاريخ الذي وضعه بيري ريس على خريطته ما زال يغذي قرح المفارقة الزمنية.

* كاتب فلسطيني مقيم في اسبانيا

لماذا الانتظار؟

إما دولة ديمقراطية لجميع مواطنيها أو دولة عنصرية من طراز جنوب افريقيا
فكرة الدولة الثنائية قديمة.. عادت للظهور مع هزيمة حزيران ولا تزال مثارا للجدل

صقر أبو فخر*

■ القضية الفلسطينية والصراع الفلسطيني ـ الاسرائيلي يمران، في هذه المرحلة، باستعصاء حقيقي ومتعدد الوجوه. فقد انتهى عهد الحروب الكبرى منذ سنة 1973، ولم يسفر ذلك عن أي تسوية سياسية متينة وراسخة. وها هو عهد التسويات يوشك على الانصرام من غير ان تشهد فلسطين خاتمة لآلامها التاريخية. لقد بدأ عصر التفاوض في سنة 1974 مع مصر في مؤتمر جنيف. وبالتدريج تطورت الامور الى ان بات ممكنا توقيع معاهدة سلام بائسة وخطيرة في سنة 1979. وحاولت القيادة الفلسطينية ان تلتحق بالعملية السياسية في الشرق الاوسط مبكرا، فصاغت برنامج النقاط العشر في سنة 1974، ومارست دينامية سياسية واعلامية فاعلة على مستوى العالم كله، وقدمت صورة راقية عن الحركة الوطنية الفلسطينية، لا باعتبارها ارهابا، بل بصفة كونها حركة سياسية تسعى الى انتزاع الحرية لشعبها.

واحتاج الأمر الى نحو سبعة عشر عاما ليصبح في إمكان منظمة التحرير الفلسطينية الانخراط في العملية السياسية التي نجمت عن مؤتمر مدريد في سنة 1991. وفي هذه الفترة مرت المنظمة بتحولات كبرى: زيارة انور السادات الى القدس سنة 1977؛ الاجتياح الاسرائيلي للبنان سنة 1978؛ كامب ديفيد ثم معاهدة السلام المصرية ـ الاسرائيلية سنة 1979؛ الاجتياح الاسرائيلي الثاني للبنان في سنة 1982؛ خطة فاس سنة 1983؛ اعلان الاستقلال الفلسطيني سنة 1988؛ الانتفاضة الاولى في سنة 1987 فصاعدا؛ سقوط الاتحاد السوفييتي ثم حرب الخليج الثانية في سنة 1990.

واليوم، بعد اربعة عشر عاما من التفاوض المرير مع الدولة الاسرائيلية، يبدو ان إمكان قيام دولة فلسطينية مستقلة في المدى القصير جرى تدميره تماما بعد ان حاولت منظمة التحرير الفلسطينية، بشتى الطرق، ان تجعل من اتفاق اوسلو (1993) مدخلا الى تطوير دينامية سياسية جديدة في المنطقة تؤدي الى قيام دولة فلسطينية. وبهذا المعنى فان تدمير امكانية قيام دولة فلسطينية، والافتراض ان اسرائيل لن تنسحب من الضفة الغربية والقدس بالكامل، اعاد الكلام على احتمالات اخرى مثل اعادة تقسيم فلسطين بين الفلسطينيين واليهود، او اقامة دولة ثنائية القومية في فلسطين التاريخية، او قيام دولة ديمقراطية علمانية، او انشاء دولة واحدة لشعبين. وهذه الافكار كلها يشترك بعضها مع بعض في امور ويفترق بعضها عن بعض في امور اخرى.

بدأت فكرة الدولة الثنائية القومية في الوسط الفكري اليهودي اولا. ولعل مجموعة «بريت شالوم» (او حلف السلام او ميثاق السلام) كانت من اولى الحركات السياسية اليهودية التي اعترفت بحقوق قومية متساوية للعرب واليهود في فلسطين. و«بريت شالوم» التي ظهرت في سنة 1925 على ايدي آرثر روبين ويوسف غوروفيتش كانت، على الارجح، السباقة في الدعوة الى هذه الفكرة. لكن يهودا ماغنس (1878 ـ 1948) كان المفكر اليهودي الأكثر جذرية في هذا الموقف، فقد اصدر في سنة 1929، أي بعد انتفاضة البراق مباشرة، كتابا بعنوان: «مثل كل الأمم» قال فيه ان الهدف الذي على اليهود ان يسعوا اليه هو انشاء مركز روحي للشعب اليهودي في فلسطين، لأن فلسطين ـ بحسب ماغنيس ـ ليست دولة قومية عربية ولا دولة قومية يهودية، بل بلد ثنائي القومية.

تجاوبت بعض النخب العربية مع هذه الفكرة مبكرا، ودعت الى تقسيم فلسطين الى ثلاث مقاطعات: يهودية وعربية ومختلطة، او الى مقاطعتين فقط: عربية ويهودية. فاقترح احمد سامح الخالدي على الوكالة اليهودية في سنة 1933 تقسيم فلسطين الى كانتونين، ووجه رسالة بهذا المحتوى الى يهودا ماغنيس في 1934/7/23. كذلك بعث موسى العلمي في ايلول (سبتمبر) 1933 تقريرا الى دائرة المستعمرات في لندن يقترح عليها تكوين مقاطعة يهودية في فلسطين تمتد من تل ابيب الى عتليت وتكون المستعمرات اليهودية من ضمنها. وفي رسالة من جورج انطونيوس الى دافيد بن غوريون (نيسان/ابريل 1936) نعثر على افكار اكثر تفصيلا في هذا الشأن؛ ففي هذه الرسالة يقترح انطونيوس ان يهاجر اليهود الى سورية الكبرى بدلا من التركيز على فكرة الوطن القومي اليهودي، وان يعطى اليهود مقاطعة عند السهل الساحلي لفلسطين تكون مشمولة بالاتحاد السوري، على ان تكون فلسطين مركزا روحيا لليهود ومركزا سياسيا لهم.

في سنة 1963 ظهرت منظمة «كديما مزراحا» أي «نحو الشرق» وهي مؤلفة من اعضاء «حلف السلام» الذي تفكك سابقا. وتابعت هذه المنظمة دعوتها الى قيام حلف بين العرب واليهود في مواجهة اليهود من انصار «الوطن القومي اليهودي» والعرب من انصار الغاء الوجود اليهودي في فلسطين. وعندما صدرت خطة التقسيم في سنة 1937 بادر كل من البرت هايمسون والكولونيل نيوكمب في 1937/10/9 الى اذاعة اقتراح مضاد عرف بـ«خطة هايمسون ـ نيوكمب». وتنص هذه الخطة على ما يلي:

1 ـ قيام دولة فلسطينية ذات سيادة ومستقلة عن الانتداب.

2 ـ يتمتع اليهود والعرب بالحكم الذاتي في شؤونهم الخاصة (وهذا يعني قيام وطن قومي يهودي لا دولة يهودية)، وبحقوق متساوية في الشؤون العامة.

3 ـ يجب ألا يتجاوز عدد اليهود في فلسطين وشرق الاردن 50 % من عدد السكان في أي حال من الاحوال.

في هذا السياق قدم الحاج امين الحسيني في 1938/1/12 (ونوري السعيد في 1938/2/6) خطة عربية تماثل تماما خطة هايمسون ـ نيوكمب. وظهرت في سنة 1939 «عصبة التقارب والتفاهم العربي ـ اليهودي» التي أسسها رابي بنيامين، ثم أسس فوزي درويش الحسيني (1896 ـ 1946) «منظمة فلسطين الجديدة». وهذه المنظمة عملت على التنسيق مع «عصبة التقارب والتفاهم العربي ـ اليهودي» التي طالما دعت الى دولة واحدة للعرب واليهود في فلسطين. لكن اغتيال فوزي درويش الحسيني في 1946/11/23 اجهض مساعي هاتين المجموعتين. لكن، في سنة 1942، ظهرت حركة «ايحود» أي الوحدة، على ايدي كل من مارتن بوبر ويهودا ماغنيس وسميلانسكي وكالفريسكي، وهي عبارة عن اندماج بين منظمة «الحارس الفتي» (هاشومير هاتسعير) و«عصبة التقارب والتفاهم العربي ـ اليهودي». وكان يهودا ماغنيس، وكذلك مارتن بوبر، من معارضي فكرة الدولة اليهودية والوطن القومي اليهودي. ودعت حركة «ايحود» الى قيام دولة ثنائية القومية في فلسطين متحدة فيدراليا مع الاقطار العربية المجاورة، والسماح بالهجرة اليهودية الى الدول المجاورة، والمساواة التامة بين العرب واليهود في المؤسسات التشريعية والادارة وحقوق التملك وحجم السكان. وهذه الفكرة طورتها، في ما بعد، منظمة «مانسبن» الاشتراكية. وكلمة «ماتسبن» تعني البوصلة، وهي حركة يسارية نشأت في ستينات القرن العشرين، وكانت ترى ان اسرائيل كيان صنعه الاستعمار، وسيظل الاستعمار يدعمه ما دام هذا الكيان يخدم المصالح الاستعمارية. وكانت «ماتسبن» تعتقد ان العمال الاسرائيليين لا يمكن ان يتحولوا الى الثورة على الصهيونية إلا اذا تطور النضال الثوري العربي اميا، وقدم حلا انسانيا وثوريا لليهود في اسرائيل. لهذا رأت «ماتسبن» ان الحل الجذري للقضية الفلسطينية وللمسألة اليهودية غير ممكن إلا في اطار فيدرالية اشتراكية شرق اوسطية معادية للامبريالية، وان انتصار هذا الحل مرهون باندحار الامبريالية في الشرق الاوسط، وهذا ما يجعل النضال ضد الامبريالية شأنا اساسيا لا يمكن اجتنابه.

أبعد من ذلك فان العالم المشهور البرت آينشتاين اعرب عن قناعته منذ سنة 1927، وكرر ذلك اكثر من مرة (في سنة 1930 وفي سنة 1948 ايضا) بأن في الامكان بناء مستقبل مشترك للعرب واليهود معا. ولم يتورع عن التصريح في 1949/11/27 بأن تقسيم فلسطين كان خطأ، ومن الضروري السعي الى فلسطين غير مجزأة حيث يعيش العرب واليهود فيها بسلام وحرية ومساواة. أما مارتن بوبر (1878 ـ 1965) فظل يدعو الى «الانسانية العبرية» في مقابل «القومية اليهودية»، ثم طور موقفه هذا الى فكرة «الدولة الثنائية القومية».

عاشت فكرة الدولة الثنائية القومية ردحا من الزمن، وكانت تمثل مسألة جدلية وخلافية معا. لكن، مع اندلاع الحرب العالمية الثانية في سنة 1939 بدأ دعاة هذه الفكرة بالضمور، وراح حضورهم الفكري والسياسي ينحسر بالتدريج. وجاءت نتائج حرب 1948 لتقضي نهائيا على هذه الفكرة. لكن اندلاع حرب الخامس من حزيران/يونيو 1967 واحتلال فلسطين التاريخية كلها أعاد احياء فكرة الدولة الثنائية القومية مجددا، وعادت هذه الفكرة لتحتل مكانتها على قائمة الجدال السياسي في اسرائيل.

الدولة الثنائية القومية: المحتوى والعقبات

الدولة الثنائية القومية تختلف جوهريا عن فكرة «الدولة الديمقراطية» التي عرضتها حركة «فتح» منذ سنة 1968، وتختلف ايضا عن فكرة «الدولة الواحدة» التي اقترحها خالد الحسن (ابو السعيد) في تسعينات القرن العشرين.

الدولة الثنائية القومية تعني وجود مجتمعين منفصلين اثنيا وثقافيا، لكن في اطار دولة واحدة. وفي هذه الدولة إما ان تتولى الأغلبية حكم الدولة، على ان تتمتع الاقلية بحقوق الاقلية؛ او ان يجنح حكم الأكثرية الى نوع من الدولة العنصرية حيث لا تتمتع الأقلية بحقوق متساوية لمواطنيها مع حقوق الاغلبية. لهذا كان لا بد دائما من قيام نظام سياسي توافقي يضمن عدم طغيان الاغلبية على الاكثرية، وعدم فرض قرار الاغلبية عنوة.

غير ان المشكلات التطبيقية تتجاوز معضلة وزن الاغلبية والاقلية في القرار السياسي؛ فثمة مشكلات من أعيرة مختلفة. وعلى سبيل المثال: ما هو اسم الدولة الذي يلبي رغبات المجموعتين القوميتين العربية واليهودية ولا يعتبر طغيانا من الأكثرية على الاقلية؟ ما هو شكل العلم الذي يمكن ان تتوافق المجموعتان على رسمه؟ ما هو محتوى النشيد الوطني؟ كيف يتم التوافق على اسماء الأماكن والمواقع والتلال والسهول والانهار بعدما خضعت هذه كلها للتهويد؟

في أي حال، فان هذه المشكلات انما تندرج في اطار التمرين الذهني، ولم تتطور الى ان تصبح مشكلات سياسية راهنة، مع ان فكرة الدولة الثنائية القومية بدأت تحفر لنفسها موقعا مهما في الجدل الفكري والسياسي المحتدم الآن في الوسط اليهودي وفي الوسط العربي معا. ولعل عزمي بشارة كان له الفضل في اعادة هذه الفكرة الى منابر النقاش السياسي. وفي هذا السياق كان العقيد معمر القذافي اصر على القمة العربية في عمان سنة 2001 على تحويل احدى جلساتها الى جلسة مغلقة لمناقشة اقتراح له في شأن الصراع العربي ـ الصهيوني. وفي 2003/5/12 كشف القذافي عن تفصيلات ذلك الاقتراح الذي يتضمن رفضا لفكرة تقسيم فلسطين ودعوة الى قيام دولة واحدة لليهود والفلسطينيين تدعى «اسراطين». وينص هذا الاقتراح، الى ذلك، على ما يلي:

ـ عودة جميع اللاجئين الفلسطينيين الى ديارهم.

ـ نزع اسلحة الدمار الشامل من اسرائيل ودول الشرق الاوسط.

ـ اجراء انتخابات حرة.

ـ انشاء دولة واحدة لجميع الاسرائيليين والفلسطينيين على غرار الدولة اللبنانية، او ما يشبه دولة اسرائيل الحالية التي اندمج فيها الفلسطينيون الباقون منذ سنة 1948.

لماذا الانتظار؟

في 2004/5/9، وامام الكنيست الاسرائيلي، وقف دانيال بارنباوم، الموسيقي العالمي والصديق الحميم لادوارد سعيد، ليقول ما يلي: «لقد اعتقدت دوما ان لا حل عسكريا للصراع اليهودي ـ العربي، لا من الناحية الاخلاقية ولا من الناحية الاستراتيجية. وبما ان الحل حتمي بالتالي، فأنا اسأل نفسي: لماذا الانتظار؟».

نعم. لماذا الانتظار، ما دام معظم الاسرائيليين يدركون ان اسرائيل ستتحول، بالتدريج، الى دولة مكروهة من طراز دولة جنوب افريقيا العنصرية؟ وهذا ما اوضحه بجلاء ما بعده جلاء ابراهام بورغ رئيس الكنيست بين 1999 و2003 حينما كتب: «بين الاردن والبحر المتوسط ما عادت هناك غالبية يهودية. لذا لا يمكن الاحتفاظ بكل شيء من دون دفع الثمن.

لا يمكن ان نترك غالبية فلسطينية تحت الجزمة الاسرائيلية ونعتبر انفسنا، في الوقت نفسه، الديمقراطية الوحيدة في الشرق الاوسط. لا ديمقراطية من دون حقوق متساوية لكل من يعيش هنا: العرب واليهود على حد سواء (...). أتريدون اسرائيل الكبرى؟ لا مشكلة. تخلوا عن الديمقراطية اذن (...). أتريدون الديمقراطية؟ لا مشكلة. إما ان تتخلوا عن فكرة اسرائيل الكبرى حتى آخر مستوطنة، او تمنحوا المواطنة الكاملة وحقوق التصويت للجميع بمن فيهم العرب، وستكون النتيجة بالتأكيد ان مَن رفض قيام دولة فلسطينية الى جانبنا سيحصل على دولة فلسطينية في وسطنا تماما من خلال صناديق الاقتراع».

* كاتب فلسطيني مقيم في بيروت